نحو أطلس لغوي سعودي

د. عبد العزيز بن إبراهيم السويل

تتمتع دراسة جغرافية اللهجات أو ما يعرف بعلم اللغة الجغرافي بتاريخ طويل جداً في كل من أوروبا وأمريكا . وقد ذاع صيت بعض الأطالس اللغوية ذيوعاً يؤهلها لأن تكون نماذج تحتذى في مجالها . وأشهر تلك الأطالس كل من الأطلس الفرنسي والسويسري . ويتبع هذين النموذجين أطالس اللهجات في كل من ألمانيا وإنجلترا واسكندنافيا وبولندا وغيرها .

ولا مندوحة من الإشارة هنا إلى أن العمل في الأطالس اللغوية أو اللهجية عمل متصل لا ينتهي ولا أدل على ذلك مما عبر به المستشرقان الألمانيان ثويدش

وبنشقيت (انظر دراسات في اللجهات العربية ١٩٨١م ص ١٤٩) حيث يقولان «إن العمل في أطلس اللهجات الألمانية لم ينته بعد، ذلك العمل الذي بدأ قبل مائة عام. بل حدث أكثر من هذا أن فكر بعض الناس، بل بدءوا فعلاً في إعداد أطلس جديد تراعى فيه مقتضيات ومتطلبات الأحوال والظروف الجديدة».

غير أن اللهجات العربية لم تحظ بحظ وافر في مجال الدراسات اللغوية الحديثة، وظلت تتغير من نمط إلى آخر بلا رصد أو دراسة، وأتاح ذلك الجو للمستشرقين القيام بمثل هذه الأبحاث والدراسات في العالم العربي. فقد قام الألماني جوتهلف برجشتراسر بإعداد أطلس اللهجات في سوريا وفلسطين، وتولى الفرنسي كانتينو دراسة اللهجة في منطقة جبال حوران وتدمر في سوريا، وغيرهما كثيرون (انظر المعتوق ١٩٨٦م، وخاصة المقدمة ص ٩، وما بعدها).

ولعل في تأخر دراسة لهجات الجزيرة خيرا، فلم يفتح الباب للأجانب للقيام بذلك بدلاً ممن يتحتم عليه ذلك، وأولئك هم أبناء هذه الأرض ممن يعتزون بتراثها، ويقدرون موروثها الحضاري. وقد عاد بعض هؤلاء من رحلة الدراسة في الغرب مزودين بزاد البحث الحديث من أساليب استقراء ومناهج بحث وتحليل، ويستند هؤلاء — إلى ذلك — على كنز بحثي جم وتقليد لغوي خالد تمثَّل في دراسة النحويين المسلمين العرب من أجدادنا، ممن وهبوا أنفسهم للدرس النحوي، ووقفوا جهدهم عليه متبعين أساليب ومناهج غاية في الدقة والحصافة لم ينتبه إليها الغرب إلا مؤخرا. وهذان العنصران، التقليد البحثي العريق، والمنهج اللغوي الحديث يمتزجان لِيُوَلِّدا — بمشيئة الله — نتاجاً علمياً ثرًّا يحفظ للأجيال القادمة مآثر أجدادهم، ومفاخر أمتهم بأسلوب علمي رصين لا مجال للحدس والتخمين فيه.

إن التفكير الجدي والمخلص في إعداد أطلس لهجي متكامل لهذه البلاد

مهمة وطنية تتطلب الاقتناع والجد والإخلاص وبذل الوقت والجهد والمال، على أن يتم ذلك في صروح علمية، وبأساليب أكاديمية مقننة ولسنا نعدم ذلك ولله الحمد. إن إعداد أطلس لهجي لبلد باتساع بلادنا تضم بين جوانحها هذا الكم الكبير من السكان الذين رغم عيشهم في هذا البلد الآمن، وتَفَيُّئِهم ظلاله الوارفة، يتمايزون اجتماعياً وثقافياً تمايزاً قلما تجود به الظروف إلا في البلاد الكبرى، ليس بالسهولة التي يتصورها العامة، ولا أشك أن إهمال هذا الزخم الحضاري مضيعة حضارية يجب ألا نسمح بها، وهدر علمي يقع على عاتقنا تشريحه في معامل جامعاتنا ودرسه أسوة بأجدادنا واقتداءً بهم.

ولا بد أن يسبق ذلك مسح لهجي متكامل، ويتطلب هذا هو الآخر جهداً علمياً وبحثياً هائلاً، ويتمثل هذا الجهد في مظهرين بحثيين مهمين.

أولاً: البحث الميداني، وما يتطلبه ذلك من إعداد وتنفيذ قد يمتد إلى سنوات عديدة، إذا ما توافر له التوجيه العلمي والتخطيط السليم، مدعوماً بالقدرات البشرية والمادية اللازمة.

ثانياً: تحليل النتائج وتقديم التقارير النهائية عنها، ليتم رسم ذلك على شكل خرائط لهجية تكوّن الأطلس المنشود.

وسنفصل فيما يلي هذين المظهرين:

●● أما من حيث المظهر الأول أي البحث الميداني، فيشتمل على عدد من العناصر الهامة، منها ما يلي:

١ ـ تحديد المناطق الجغرافية السكانية التي تكون منطقة الدراسة وهي هنا المملكة العربية السعودية.

٢ ـ تحديد أسلوب البحث أو المنهج العلمي الذي يزمع الباحث استخدامه.

٣ـ اختيار أفراد العينة التي يرى الباحث أنها تمثل سكان المناطق خير تمثيل وتعريف هذه العينة تعريفاً دقيقاً يميزها عن غيرها من الفئات السكانية كتحديد الجنس والسن والمستويات الاجتماعية والتعليمية والاقتصادية . . . إلخ .

٤ ـ تصميم استبيان لغوي متكامل يمكّن من رصد أكبر قدر ممكن من المعلومات اللغوية .

٥ ـ تعيين وسيلة الجمع كأن يكتفي الباحث بكتابة المعلومات صوتيًا (١)، أو وصفها بلغة عادية ، أو يقوم بتسجيلها على أشرطة ممغنطة تكوّن فيما بعد ما يعرف بالأرشيف الصوتي ، الذي يمثل مرجعاً دائماً يمكن لكل من يريد الاطلاع عليه في المستقبل أن يفعل ذلك بلا عناء (٢).

ويمكننا تطبيق هذه العناصر على الأطلس اللهجي السعودي على النحو التالي :

١ـ يمكن تحديد المناطق الجغرافية السكانية تبعاً لتقسيمها الإداري ؛ أي أن تعتبر كل منطقة إدارية منطقة لهجية متميزة (بوصفها مجموعة كبرى) ومع ما في ذلك من تجاوز علمي فإنه يفي بالغرض كخطوة أولى نحو تحقيق التحديد النهائي ، ولنأخذ مثلاً لذلك منطقة كمنطقة القصيم . يمكن اعتبار هذه المنطقة الإدارية (إمارة القصيم) منطقة لهجيّة متميّزة . والواقع أن التباين اللهجي ضمن هذه المنطقة محدود ولكن لا مندوحة للباحث من تحديد مناطق هذا التباين ضمن إطار منطقة البحث الكبرى (القصيم) ويكون ذلك بتخصيص دراسات مستقلة للتجمعات السكانية الثلاثة الكبرى في المنطقة وهي بريدة وعنيزة والرس ثم يمكن النظر إلى

التجمعات القروية والهجر وتجمعات الواحات الزراعية على أنها نماذج لهجية تابعة للثلاثة الكبرى، وهكذا يمكن إلحاق المذنب وما يليه من الجنوب حتى السر بلهجة عنيزة ويمكن إلحاق قرى الرس (عطا وعطي والشنانة وغيرها) بلهجة الرس ويمكن إلحاق قرى الجنوب مما يلي بريدة بلهجة الأخيرة مع ما بين بعضها من اختلاف وتبقى بعض التجمعات مما لا يكاد الباحث يجزم بتبعيته لغيره كلهجة عيون الجواء أو لهجة البدائع أو لهجة (أو لهجات) قرى البكيرية والخبراء ورياض الخبراء والهلالية وغيرها. ويلزم إرجاء البت في ذلك إلى الانتهاء من إجراء المسح الميداني.

وهكذا الأمر بالنسبة لغير هذه المنطقة حتى يتم حصر كل مناطق البحث وتحديد تقسيمها الجغرافي وقد يتطلب الأمر مناقشة أهل الجغرافيا والعالمين بأصولها وفروعها وخاصة من يهتم منهم بجغرافية المملكة الطبيعية والسكانية وفي العلماء بجامعاتنا الخير الكثير.

٢ ـ إن من أهم القرارات التي يتحتم على الباحث البت فيها هو الأسلوب الذي سينتهجه في بحثه. ويميِّز علماء اللهجات بين أسلوبين من أساليب جمع المعلومات وهما (انظر فرانسيس ٨٣م):

أ ـ المسح المباشر، ويكون ذلك بأن يقوم الباحث نفسه بالنزول إلى الميدان، ومباشرة العمل، وأن يجري المقابلات مع أفراد العينة بنفسه. ولهذا الأسلوب مميزات متعددة لن نسهب في ذكرها هنا ولكن لا بأس من المرور عليها. وأهم هذه المميزات أن هذا الأسلوب يمكِّن الباحث من السيطرة المباشرة على مجريات الأمور، ومن ذلك مثلاً، التأكد من صلاحية الفرد

الممثل للعينة ، ومدى تمثيله للهجة موضوع الدرس ، ومنها إتاحة الفرصة للباحث للتأكد من تغطية اللهجة المطلوبة فقط واستبعاد ما لا فائدة من دراسته ، بل ربما سبب التشويش وشوّه الدراسة ، ومن المميزات المهمة لهذا الأسلوب أن الباحث الذي يقوم بالمسح فيه هو العالم اللغوي الذي يصمِّم الاستبيان ، ويحدِّد المناطق مما يعني تناسقاً في العمل وسيطرة تامة على كل مراحل المشروع ، الأمر الذي يصعب التحكم فيه لو قام بالبحث أفراد آخرون حتى ولو عملوا بإشراف مباشر ، وتوجيه دائم من اللغوي المشرف .

وأخيراً يمتاز هذا الأسلوب في كونه يحول دون الكثير من سلبيات الوسطاء كالوهن والتكاسل والجهل وعدم الحماس ، وغير ذلك ، ويضمن أكبر قدر من الدراية إذ إنّ من يقوم به يكون محترفاً مؤمناً بما يقوم به صابراً على بلائه متقبلاً برحابة صدر كل ما يمكن أن ينجم عنه من إحراج وضيق . ولكن على الرغم من كل ما تقدم من محاسن يبقى هذا الأسلوب حلماً صعب التحقيق ، وخاصة إذا كانت منطقة الدراسة واسعة فسيحة كما هي الحال هنا . أما إذا كان التباين على ما هو عليه في المملكة فالأمر يصبح مستحيلاً لا قبل لفرد من البشر عليه . إن اللغوي مهما أوتي من حماس وسعة صدر وتفان يبقى إنساناً محدود الطاقة والجهد والعلم ، ويتحتم عليه الاستعانة بغيره من الزملاء والطلاب والمعارف وغيرهم ، وهذا ما يعرف بالأسلوب غير المباشر وسنلمح إليه فيما يلي .

ب - المسح غير المباشر، ويكون ذلك بأن يعمد اللغوي إلى تكليف عدد من

الأفراد، بعد إعدادهم وشحذ هممهم واجتذاب حماسهم للمشروع، بالقيام بالعمل بدلاً منه. ولهذا الأسلوب كما لسابقه مميزات عديدة جعلت منه منافساً حقيقياً للأسلوب المباشر. ولعلَّ أهم محاسن هذا الأسلوب واقعيته، وإمكان تحقيق العمل بموجبه. فهو يقوم على مبدأ التعاون، وإتاحة الفرصة لجماعة من الناس للقيام بالمسح بدلاً من تركه لفرد محدود الموارد. كما أن هذا الأسلوب يمكِّن من جمع كم هائل من المعلومات اللغوية في مدد تبزُّ ما يصرف في سابقه بأضعاف، وعلى مساحات تفوق الأسلوب المباشر مرات عديدة أيضا. ولا شك أن في ذلك ميزة هامة تجعل منه أسلوباً يجتذب اللغويين ممن يقومون بمسح اللهجات بقصد إعداد أطالس لهجية. ويمتاز هذا الأسلوب أخيراً، بأنه يمكِّن اللغوي من تعيين مساعدين (باحثين ميدانيين) من أهالي النواحي والمدن والقرى، للقيام بتغطية أماكن انتمائهم مما يتيح فرصة ذهبية للتَّغلغل في المجتمعات وخاصة القروية المغلقة التي قد يصعب أو يستحيل الدخول فيها من قبل الأجانب.

٣ـ العنصر الثالث الذي يتحتم على اللغوي الالتفات إليه قبل البدء بالمسح هو تحديد أفراد العينة، ويتم ذلك بأن يحدد الباحث نوع اللهجة التي يرمي إلى دراستها، فإن كان يرمي إلى دراسة التباين اللهجي المبني على أسس جغرافية فقط، فإنه بذلك يبحث عمن يمثل لهجة إقليم أو تجمع سكاني بعينه، ولكن الأمر ليس بهذه السهولة. فكلنا نعلم أن لهجة كل طبقة اجتماعية تتميز عن لهجة غيرها في نفس التجمع اللغوي، بل إن لهجات الأفراد تتباين تبعاً لأعمارهم فنجد لهجة للشيوخ ولهجة للشباب،

ثم إن لهجات الأفراد تتباين تبعاً لجنسهم ، ولذلك فنحن غالباً ما نسمع عن لهجة الرجال ونميزها بشفافية وثقة عن لهجة النساء ، بل إن بعض الناس يضحكون أو ينتقدون من يتكلم بلهجة «الحريم» من الرجال ، ويصمونه بالتخنث والشّك في رجولته . وهكذا فالاهتمام بهذا الأمر يبدأ عند اللغوي بأن يحدد العينة المطلوبة ، ويُعرِّفها تعريفاً يخصِّصها وينفي ما عداها من كل النواحي ذات العلاقة بالأمر.

٤ ـ ويأتي بعد ذلك تصميم الاستبيان اللغوي ، والهدف من الاستبيان اللغوي هو حفز أفراد العينة للتلفظ بجمل وعبارات وكلمات تكوِّن لهجتهم ، وتمكِّن الباحث وغيره من دراستها وتحليلها فيما بعد . ويتم تكوين هذا الاستبيان تبعاً للمظهر أو المظاهر اللغوية المطلوب درسها . ويمكن تقسيمه إلى أجزاء ، يخصص كل منها لدراسة مظهر لهجي معين . فيخصص جزء لدراسة التراكيب اللغوية مثلاً ، ويكون ذلك عادة بطلب رواية قصة ، أو حكاية ، أو طرفة ، أو مثل سائر ، فيتكلم الفرد بطبيعية ، وبلا تعسف ، ويرصد قوله ويسجله ثم يقطَّع فيما بعد ويدرس ويحلَّل . ويخصص جزء آخر للمفردات الشائعة في منطقة الدراسة ، ويكون ذلك بإلقاء عدد من الأسئلة على الفرد ، لحفزه للتلفظ بالمسمَّيات والصفات والمفردات العامة المستخدمة في لهجته للدلالة على أشياء معينة ، ويتم فيما بعد جمع هذه الكلمات وفرزها وتحديد سماتها ومقارنتها بغيرها . ويخصص جزء ثالث لأصوات اللهجة المدروسة ، ويكون ذلك بتحديد المهم من هذه الأصوات ، وحفز الفرد على استخدامها في بيئات صوتية متعددة تمكن الباحثين من حصر استخداماتها ، وتعدد صورها ، واستنباط القواعد المحدَّدة لتلك الاستخدامات والصور

ويتكون الاستفتاء من أسئلة عن نواح حياتية متعددة مستنبطة من حياة

أفراد الجماعة التي تستخدم اللهجة موضوع الدرس، ويتم التركيز على ما يُميِّز تلك الجماعة بالذات وقد لاحظ بعض من قاموا بأعمال المسح أن ذلك يُشعر الأفراد بالفخر والاعتزاز ببيئاتهم، والزهو بمأثورهم مما يساعد في التغلغل إلى داخل نفوسهم، ويسهل الوصول إلى ما في عقولهم بطبيعية وبلا حياء أو تردد.

٥ ـ ثم تأتي بعد ذلك وسيلة الجمع التي ينتهجها الباحث في التسجيل، فقد يكتفي بعض اللغويين بكتابة ما يقوله الفرد كتابة صوتية، ويكون ذلك في الغالب خاضعًا لظروف أخرى خارجة عن جهد الباحث، وذلك بأن يسيئ سماع لفظة ما فيكتبها خطأً على غير المقصود، وحيث إنَّ كل كلمة تقال تذهب في الهواء ولا يمكن استرجاعها فإن ذلك الرصد قد يكون البداية لتحليل خاطئ لتراكيب وألفاظ اللهجة، كما أن مهارة الباحث في الكتابة الصوتية أو جهله بها يلعب دورًا في تسجيل اللهجة تسجيلاً دقيقاً يُمكِّن من درسها وتحليلها على الوجه المطلوب. وقد كان أسلوب الكتابة الصوتية متبعاً في معظم حالات المسح اللغوي القديمة؛ وذلك لكونه الأسلوب الوحيد المتوافر وقتئذٍ، أما في أيامنا هذه فقد لجأ الباحثون إلى أساليب التسجيل الإلكتروني على أشرطة مسجلة، وهذه تتيح فرصة تكرار المسجَّل مرات عديدة حتى يصل الباحث إلى بغيته. وقد تطورت أساليب التسجيل مؤخراً تطوراً مكَّن العلماء من إعداد نسخ تكاد تفوق اللفظ الإنساني، بل إن هناك أجهزة تنقي الصوت وتركز على المطلوب تركيزاً يجعل من الصعاب السابقة تاريخاً قديماً وبدائياً(٣). كما أن وجود الأشرط المسجلة يمكِّن من إقامة ما يطلق عليه علماء المأثور الشعبي

«بالأرشيف الصوتي» أو الشفهي (٤)، وهذا أشبه ما يكون بمكتبة تمكن عددًا كبيرًا من المهتمين من الاطلاع عليها، والادلاء بما يرون حيالها وفي ذلك تطور كبير لم يكن ممكناً من قبل.

أسهبنا فيما تقدم من الحديث عن المظهر البحثي الأول فيما يتعلق بالعمل على إيجاد أطلس لهجي للمملكة العربية السعودية، وتطرقنا إلى ما يجب على من يقوم بهذا العمل من إعداد، وركزنا على المظهر البحثي الأول وهو البحث الميداني لرصد وتسجيل لهجات المناطق المختلفة، وسنركز في هذه العجالة على المظهر الثاني وهو تحليل نتائج المعلومات المجموعة وترجمة تلك النتائج إلى خرائط على الورق، تسهل للدارسين تكوين فكرة عن الوضع اللهجي بنظرة واحدة.

نحن إذاً أمام خطوتين رئيستين، وهما تحليل النتائج وتمثيلها في خرائط وسنحاول ذلك كما يلي:

أولاً: تحليل النتائج

يمكن البدء بهذه المرحلة قبل انتهاء المرحلة السابقة، أي مرحلة الجمع، وإن كان الأفضل الانتظار حتى الانتهاء من جمع المعلومات. ويشارك في هذه العملية أفراد باحثون آخرون ولا يكونون بالضرورة نفس الباحثين الميدانيين الذين قاموا بجمع المعلومات. فبينما لا تتطلب عملية الجمع إلا قدراً يسيراً من التدريب، ويقوم بها الطلبة والأهالي والمعارف الشخصية للباحث الرئيسي، تعتبر عملية التحليل عملية فنية علمية تخصصية، لا يمكن أن يقوم بها إلا لغويون محترفون، ولهم باع طويل في

التحليل اللغوي، ونظريات علم اللغة واللهجات الحديثة. ولتحليل نتائج البحوث الميدانية في علم اللهجات مظهران مهمان وهما الاستقراء والمقارنة.

(1) الاستقراء

ويقصد بالاستقراء أن تستنبط المعلومات المسجلة من مصادرها الأساسية، أي بطاقات التسجيل أو الأشرطة المحفوظة، بحسب الأسلوب الذي تم به الجمع، ويصار إلى جمع وفهرسة هذه المعلومات بحسب انتمائها. ولنضرب مثالاً على ذلك بأن نبدأ بتحليل اللهجة المدروسة من حيث المفردات. يقوم الباحث باستقراء المفردات الواردة في إجابات الأفراد الذين تم اللقاء معهم، وذلك بحصر إفاداتهم عن المسمَّيات والأوصاف والأدوات والآلات المستخدمة في منطقة لهجتهم، ثم تفهرس هذه المجاميع بناء على الجزء الكلامي الذي تتبعه، فيُصار إلى حصر الأسماء والصفات والظروف والأفعال والحروف وغير ذلك، حتى يتكون لدى الباحث قوائم تمثل نماذج لأجزاء الكلام في اللهجة، وتسجل كل هذه المعلومات على بطاقات منفردة مرتبة بحسب الألفبائية ليسهل الرجوع إليها عند الحاجة، وترتب البطاقات في حاويات خاصة كما ترتب مداخل المعجم، أو كما ترتب بطاقات الكتب في المكتبات العامة. وتكرر هذه العملية لكل مظهر لهجي يرى الباحث إدراجه في البحث كالأصوات والتراكيب والدلالات والمقاطع والجمل والعبارات وغيرها، وتكون الحصيلة النهائية كمًّا ضخمًا من المعلومات المفهرسة والمرتبة ترتيبًا سهلاً يجعل منها مادة في متناول الباحث لما يلي ذلك من خطوات.

وقد يكتفي بعض الباحثين بذلك فينتج ما يعرف في علم اللهجات بالدراسة الوصفية، ويكون ذلك بأن يقدِّم الدارس وصفًا دقيقًا هو عبارة عن سرد لهذه المعلومات أملاً في أن يتم عمل دراسات وصفية مماثلة لعدد من اللهجات، يتم بعدها الانتقال إلى المرحلة الثانية من مراحل التحليل اللغوي وهي دراسات المقارنة. أما من يتوق إلى التوصُّل إلى أطلس لهجي متكامل، ولا يكتفي بدراسات وصفية متفرقة فلا بد له من أن يعمد إلى المرحلة الثانية حتى يتمكن من تكوين صورة جماعية ويركب منها خارطةأو خرائط لهجية مفصَّلة.

(٢) المقارنة

ويقصد بالمقارنة أن يعقد الباحث مقارنات بين النتائج التي توصل إليها خلال عملية الاستقراء، ويتم ذلك بسرد أوجه التشابه والاختلاف بين السِّمات الخاصة بكل مظهر لهجي جرت دراسته لكل الأنماط اللهجية الدَّاخلية في منطقة البحث. وتمثل القوائم الناتجة عن ذلك أوجه التطابق أو التباعد بين اللهجات. فالأنماط التي تشترك بكل السمات لكل المظاهر اللهجية تكون لهجة واحدة. بينما تتحدد شقة التباعد بين اللهجات بحسب عدد أوجه الاختلاف، إما بتعدد السمات المختلفة أو بحجم ذلك الاختلاف، ولا يمكن إجراء عملية المقارنة إلا بالاحتساب لها أصلاً عند تصميم الاستبيان اللغوي. إذ على الباحث أن يحرص غاية الحرص في الحصول على معلومات يمكن أن تتيح عملية المقارنة. فلو اختلفت الأسئلة بشكل يجعل الإجابات مختلفة إلى حد

يصعب معه إجراء المقارنة، لاستحالت مقابلة المظاهر اللهجية في نمط ما بما يقابلها في الأنماط الأخرى. وعلى ذلك فالباحث اللغوي الحاذق يجعل عملية المقارنة نصب عينه عند تصميم الاستبيان، وإن كان ذلك يتم في مرحلة متقدمة من البحث كما أسلفنا.

بهذه يكون قد تكون أمام الباحث صورتان، الأولى: وصف مفصل لكل نمط لهجي تم مسحه، والثانية: ما يتميز به كل نمط لهجي عن غيره، ولم يبق إلا ترجمة ذلك على خرائط جغرافية مفصَّلة.

ثانياً: تكوين الأطلس اللهجي

بعد أن يتوافر للباحث اللغوي وصف مفصل لكل نمط لهجي، يمكن الشروع بترجمة ذلك في خرائط جغرافية ويمكن أن يتم ذلك على مرحلتين، الأولى: تصنيف دقيق للسمات المميزة لكل نمط لهجي وتخصيص رمز لكل منها لتمثيلها على الخارطة، والثانية: العناية بتحديد مناطق الحدود اللهجية بين نمط وآخر، أو ما يعرف في مجال الدراسات اللهجية بالأيسوكلوس (Isogloss)(٥) وسنفصل ذلك بعد قليل.

وقبل الخوض في تفاصيل كل من هاتين المرحلتين، أرى أن أنبه أن على اللغوي (عالم اللهجات) أن ينسق مع جغرافي يتقن رسم الخرائط، ويُفضَّل من له إلمام بمنطقة البحث اللغوي أو متخصص بها. والتنسيق مع الجغرافي لا ينتهي برسم الخرائط وتحديد معالم المنطقة جغرافيا. بل له أهمية خاصة تتبلور في العمل جنباً إلى جنب مع اللغوي عند تفريغ المعلومات اللغوية على الخرائط «الخام»؛ أي الخالية من أية معلومات.

والسبب طبعاً هو جهل اللغوي بهذه العملية المتخصصة بالمقارنة بعالم الجغرافيا الذي لا بد وأن يكون على اطلاع على الأساليب المتبعة في تفريغ المعلومات على الخرائط ، إذ لا فرق بين المعلومات اللغوية وغيرها من المعلومات الجغرافية الأخرى كالزراعية والاجتماعية والعرقية والاقتصادية وغيرها مما يمكن تمثيله بخرائط جغرافية .

ومن الواضح هنا أننا أمام نوعين من الخرائط اللهجية ، مما يدعو إلى إتمام العمل على المرحلتين السابق ذكرهما ، النوع الأول : هو الخرائط الخاصة بالتوزيع الجغرافي لنمط لهجي معين . وهذا النوع يحتوي على السمات المميزة لكل نمط لهجي على حدة . فإذا كان الهدف هو توضيح التوزيع الجغرافي لظاهرة الكسكسة في لهجات الجزيرة العربية مثلاً ، فإن الخارطة تخصص لهذا الغرض فقط . ولهذا أهمية خاصة إذ إن تخصيص خارطة مستقلة لظاهرة واحدة مما يوضح التوزيع الجغرافي لهذه الظاهرة بالذات ويركز عليه . كما أن من شأن ذلك أن يساعد على فهم هذه الظاهرة بالذات بمعزل عن غيرها من الظواهر . وهذا النوع يأتي في الغالب قبل غيره . . ولعل في ذلك إشارة من علماء اللهجات إلى أهميته من جهة وصعوبة التوصل إلى توزيع صحيح وحقيقي على أساسه من جهة أخرى .

وتخصيص خارطة مستقلة لكل مظهر لهجي أو سمة لهجية مميزة لنمط لهجي ما يعني تخصيص عدد من الخرائط يعادل عدد السمات أو المظاهر اللهجية المميزة لذلك النمط . ويمكن أن يكون ذلك عددًا كبيرًا من الخرائط مما قد يستوجب تخصيص فصل كامل بل ربما تطلب الأمر

تخصيص مجلد خاص لكل نمط لهجي لتمثيل كل سماته المميزة له عن سائر الأنماط الأخرى. وسيلاحظ اللغوي في المحصلة النهائية للتمثيل الجغرافي أن كل السمات المميزة لنمط لهجي معين تتركز في جهة معينة من الخارطة هي بالطبع الجهة التي يحتلها متكلّمو ذلك النمط بعينه. ولكن أحد المظاهر قد يمتد إلى مساحات أخرى غير منطقة هذا النمط، وذلك عندما يكون ذلك المظهر مشتركاً لأكثر من نمط لهجي. إذ إن هذا النوع من الخرائط مخصص للسمات وليس للأنماط اللهجية نفسها. والمفترض أن يستنتج اللغوي انتماء ما ينتمي منها لنمط لهجي ما بعد تمثيلها على الخارطة. واتفاق أكثر من سمة أو مظهر على الظهور بشكل متكرر في نفس المكان يعني أنها كلها تميز ذلك النمط اللهجي بالذات. كما أن امتداد بعضها إلى غير ذلك المكان يعني اشتراك أنماط لهجية أخرى بها مع ذلك النمط. وتمثل الخارطة رقم (١) هذا النوع، وهي توضح التوزيع الجغرافي للمفردات المستخدمة للدلالة على إناء نقل الماء "Pail" ويمكن ترجمتها بـ (سطل). وتغطي هذه الخارطة الولايات الشرقية من أمريكا (مأخوذة عن كتاب كورات «جغرافية المفردات في شرقي الولايات المتحدة» وهي هنا نقلاً عن فرانسيس ١٩٨٣م.

أما النوع الثاني من الخرائط اللغوية (اللهجية) فيخصص لتمثيل الأنماط اللهجية التي تغطي تلك البقعة. فإذا أردنا أن نوضح التوزيع الجغرافي للهجات المملكة العربية السعودية مثلا فإن الخارطة تكون وعاءً لسمات تلك اللهجات جميعها في آن واحد. ولا يقل هذا النوع من الخرائط اللغوية أهمية عن سابقه.

خارطه رقم (١)

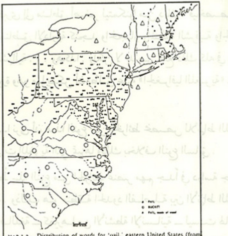

MAP 1.2. Distribution of words for 'pail,' eastern United States (from Kurath, WGEUS).

توزيع المفردات الدالة على (سطل) في شرقي الولايات المتحدة
(كوراث «جغرافية المفردات في شرق الولايات المتحدة)

وأهم ما فيه أنه يعطي فكرة شاملة عن الوضع اللهجي في منطقة الدراسة بنظرة واحدة. وهو في العادة يأتي بعد النوع الأول في الترتيب. ولذلك أهمية خاصة. إذ إن القارئ يحظى بنظرة شاملة بعد أن يستوعب الخرائط المفصلة المستقلة. ولكن أهميته الحقيقية تأتي في كونه المصدر الوحيد المضمون لإجراء المقارنة بين كل الأنماط اللهجية المنتشرة في منطقة البحث. ويكون مقاس الرسم في هذا النوع من الخرائط كبيراً نظرا لكثرة التفاصيل التي تحتاج إلى مساحات يمكن تمثيلها على

على الخارطة بلا ضيق. وقد يلجأ بعض اللغويين إلى تقسيم منطقة البحث الكبرى إلى مناطق أصغر ليتمكنوا من ذلك. فيخصص مثلاً خرائط للمناطق الإدارية كنجد والحجاز والمنطقة الشرقية والجنوبية (عسير) والشمالية. . . وهكذا. ولكن لا بد من جمع ذلك كله في خارطة واحدة كبيرة وهو ما يمكن أن يطلق عليه «الجغرافيا اللغوية» لمنطقة الدراسة.

وهكذا نرى أن هذا النوع من الخرائط مخصص للأنماط اللهجية وليس للسمات اللغوية التي تميزها وذلك بخلاف النوع السابق.

ويَرْتَبِطُ بهذا النوع من الخرائط عنصر مهم جداً في دراسة جغرافيا اللهجات. وذلك هو منطقة الحدود الفاصلة بين الأنماط اللهجية المختلفة. فاللغة ــ كغيرها من الأنشطة الإنسانية ــ ليست لها حدود واضحة ودقيقة، كما هو الحال في الحدود السياسية بين الدول المتجاورة، بل قد تمتد المنطقة الحدودية بين نمطين لهجيين على منطقة من الأرض قد تفوق مساحة أحد النمطين أو كلا منهما. إذ لا يمكن أن يتصور المرء نفسه وقد تخطى حداً وهمياً يتوقف الناس عنده عن الكلام بلهجة ما ليبدءوا باستخدام لهجة أخرى. والذي يحدث في الواقع أن التحول يتم بتدرج بطيء لا يكاد يلحظه المرء. فتبدأ سمات نمط لهجي بالتلاشي تدريجيا حتى تكاد تختفي تماماً. وتبدأ في نفس الوقت تتضح سمات النمط اللهجي المجاور حتى تستقل تماماً مبنية عن هوية ذلك النمط بالذات. وينشأ عن هذا التدرج (التلاشي ثم الوضوح) نمط لهجي ثالث هو منطقة الحدود أو الايسوكلوس (Isogloss) وتكون سمات هذا النمط

هجيناً من سمات النمطين ويكون ذلك على وجهين، إما بشيوع سمات مشتركة من النمطين الرئيسين. فإذا كانت منطقة الحدود اللهجية بين نمط كسكسة (قلب الكاف إلى صوت مزدوج من التاء والسين كما في لهجة نجد) ونمط كشكشة (قلب الكاف إلى صوت مزدوج من التاء والشين كما في لهجات الخليج والعراق) فإن النمط الحدودي (الثالث) يحتوي على المظهرين أي الكسكسة والكشكشة جنباً إلى جنب، فنجد بعض الناس «يكسكسون» وبعضهم «يكشكشون» أو تجد أن نفس الأفراد يستخدمون كلتا الظاهرتين في كلامهم بلا تمييز. والوجه الثاني لشيوع سمات النمطين اللهجيين المتجاورين في منطقة الحدود هو نشوء ظاهرة ثالثة تكون وسطًا بين الظاهرتين الشائعتين في النمطين اللهجيين الرئيسين. ومثال ذلك ما لاحظته في لهجة «الزلفي» فيما يتعلق بتركيب حرف الجر مع الضمير (بِهْ) وتنطق بكسر الباء وتسكين الهاء المهملة، وهذا وسط بين لهجات جنوب نجد كلهجة سدير حيث يشيع التركيب (فيه) وبين لهجات شمال نجد كلهجة القصيم حيث يشيع التركيب (بُهْ) وتنطق بضم الباء وإهمال الهاء الساكنة. وينطبق ذلك على التركيب من حرف الجر واسم الإشارة فيقولون في الزلفي (بذا) بكسر خفيف مبتور بعد صوت الذال، ومن الواضح أن هذا وسط بين (فيذا) كما هي في سدير و(بذا) بفتح كامل بعد الذال كما في القصيم.

وترسم منطقة الحدود اللهجية عادة على شكل خطوط تمثل حدود انتشار الظواهر اللغوية الشائعة في كل من النمطين المتجاورين ويتم

تركيب عدد من الخطوط تمثل عدد الظواهر ذات العلاقة حتى يتم تكوين «حزمة» (bundle) من الخطوط توضح حدود كل الظواهر اللهجية الشائعة في النمطين وتمثل الخارطة رقم (٢) هذا النوع، وهي توضح أربع مناطق لهجية في شرقي الولايات المتحدة الأمريكية (مأخوذة عن كتاب كوراث «جغرافية المفردات في شرقي الولايات المتحدة» وهي نقلاً عن فرانسيس ١٩٨٣)

خارطة رقم (٢)

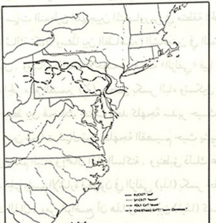

MAP 1.1. Four isoglosses in eastern United States (from Kurath. WGEUS).

أربعة حدود لهجية في شرقي الولايات المتحدة

(كوراث «جغرافية المفردات في شرقي الولايات المتحدة»)

وبعد فهذا اقتراح مختصر لأطلس لهجي سعودي وقد يَتَساءَلُ القارئ الكريم عن جدوى كل هذا العناء، ولن أسهب في هذا بل سأحاول تقديم أطر للإجابة على شكل نقاط مختصرة:

أولاً:

لا شك بالعلاقة الوطيدة بين لهجات العربية الفصحى القديمة ولهجاتها المعاصرة. والكشف عن اللهجات المعاصرة وربطها بمواقع جغرافية قد يساعد على معرفة علاقتها باللهجات القديمة التي كان يستخدمها أناس يقطنون نفس المواقع. وقد تكون هذه هي الحلقة المفقودة في سبيل إعادة بناء (Reconstructing) تلك اللهجات ولهجات المملكة العربية السعودية خاصة والجزيرة العربية بشكل عام هي المرشح الأجدر، والذي يعول عليه في هذا القصد^(٦).

ثانياً:

تهتم الدول المتحضرة بتحديد ما يسمى «بالسياسة اللغوية» وتهدف هذه الدول من ذلك إلى وضع خطط حكومية للتدريب على اللغة واستخدامها. فلا سبيل للإبداع إذا افتقر الإنسان إلى وسيلة الاتصال الضرورية وهي اللغة. والكل يعلم أن اللغة المتعلَّمة لا تنافس اللغة المكتسبة طبيعياً في القدرة على الاتصال. وهكذا فإلمام المخططين اللغويين بالقدرات اللهجية للمجتمع تمكنهم من وضع الخطط لتعليم اللغة القومية وهي الفصحى. ومن أهم الأمور التي يجب أن تشغل بال أولئك

المخططين هي مسألة الازدواج اللغوي أو وجود مستويين من اللغة وهما العامي والفصيح ومناقشة إمكانية تقريب كل منهما للآخر وخاصة رفع العامي إلى مستوى الفصيح ولن يتسنى ذلك بدون فهمه ووضوحه في أذهانهم، وأظن من يدرس العامي بعمق كافٍ سيفاجأ بقربه الشديد أصلاً للفصيح وأن الأمر لا يتطلب أكثر من نفض غبار اللحن عنه (٧).

ثالثاً: إن للتراث الشعبي أهمية خاصة عند كل أمم الأرض. ولا يجوز بأي شكل من الأشكال إهمال جزء من حضارتنا، ومرحلة مهمة من تاريخ بلادنا. وهي في الواقع أشد تلك المراحل تعرضاً لخطر الاندثار والزوال التام. فالجهل الذي ساد فيها وفقدان الكتابة والفقر والعوز اللذان كانا صبغتها الرئيسية كلها أمور تساعد على ذلك. ولا يمكن أن نحفظ هذا التراث بلا حفظ اللغة في مجتمعه. الوقت إذاً يسير سريعاً وإن لم نتدارك ما في ذاكرة كبار السن بيننا قد نعدم الوسيلة إلى الأبد (٨).

رابعاً:

إن لم ننبر لدرس تراثنا بأنفسنا فسيقوم عليه أقوام آخرون ممن اعتادوا على أن يتخذوا من العالم النامي ميادين لأبحاثهم ومعامل لتجاربهم باسم علم الإنسان ودراسة الفلكلور وغير ذلك. وهم غالباً ما يشوهون ما يجدون إما بجهل أو بسوء نية. أو بتطبيق نظريات إلحادية منافية لديننا وأعرافنا وتقاليدنا. وهي وإن لم تكن كذلك في مجتمعاتهم فهي على الأقل أحياناً ليست الإطار الفكري المناسب لإدراك حضارتنا وفهم تراثنا.

خامسًا :

تُعَدُّ اللغة من أهم المؤشرات التي تستخدم لفهم الشخصية الفردية والتركيب الاجتماعي التي تعتمدها بوصفها وسيلة للاتصال الشفهي . ونحن نعني هنا اللغة الشفهية التي يتكلمها الأفراد بسليقة وطبيعية . ولا غرو فهي حقا مفتاح تلك الشخصية ، وربما كانت المفتاح الوحيد لها ولا سبيل للتخطيط المدروس والمبرمج وخاصة في النواحي التعليمية بلا تغلغل في أعماق شخصية الفرد ، ناهيك عن التركيبة الاجتماعية للجماعة . إذًا فوجود مرجع لهجي مفصل للهجات مناطق البلاد يسهل على المختصين من مصممي خطط التنمية المختلفة عملهم ويزودهم بالخلفية الاجتماعية المطلوبة للوصول إلى أفضل المقترحات في هذا الشأن(٩) .

سادسًا :

لعل القارئ يلمس طرافة البحث اللغوي وخاصة في مجال اللهجات ولقد كانت لي تجارب في الميدان مع أناس كبار في السن تعقد الفرحة ألسنتهم عندما يجدون أحداً من الجيل الجديد يبدي اهتماماً بلهجاتهم وموروثهم الحضاري من ألعاب شعبية وحكم وأمثال وأقوال وغيرها . ولنا في علماء اللغة المُسْلمين أسوة في حماسهم للدراسات الشعبية واحتفائهم بها ، ولعل نظرة إلى كتب الجاحظ مثلا تغري بالولوج إلى هذا الميدان واقتفاء أثره .

الهوامش

(١) لا بد أن يسبق ذلك الاتفاق على ألفبائية صوتية عربية . انظر في ذلك المحاولة التي نشرتها عام ٨٦م «السويل ، ١٩٨٦م».

(٢) لتفصيل ذلك انظر بحث السويل «لهجات وسط الجزيرة العربية ؛ النظرية والمنهج : دراسة حالة» مجلة المأثورات الشعبية ، السنة الأولى ، العدد الثالث يوليو ١٩٨٦م .

(٣) انظر Francis (1983)

(٤) انظر الصويان (١٩٨٥م) .

(٥) انظر Francis 1985 وغيره كثير من الكتب والأبحاث التي تعنى بعلم اللهجات .

(٦) يشيع في أدبيات اللغويات العربية كثير من الأمثلة التي تثبت هذه العلاقة بما لا يدع مجالاً للشك . انظر مثلاً أبحاث الدكتور رمضان عبد التواب ومنها عبد التواب (١٩٨١) وغيرها .

(٧) انظر مثلاً بحث المستشرقة الأمريكية مس آن رويال (١٩٨١م) .

(٨) انظر بحث الدكتور سعد الصويان (١٩٨٥م) .

(٩) انظر في ذلك كتاب "Introduction to Linguistic" لمؤلفه crane وآخرين (١٩٨٣) وكذلك بحث الدكتور أحمد سيد محمد (١٩٨١م) .

المراجع العربية

١ ***ثويلش مانفريد وبيتر بينشتيت (١٩٨١م) «الأطلس اللغوي المصري وملاحظات حول لهجات مصر» في كتاب دراسات في اللهجات العربية ، كلية الآداب بسوهاج ص ص ١٤٩ ـ ٢١٧ .***

٢ ***رويال ، مس آن (١٩٨١م) «علم اللغة والسياسة اللغوية في مصر» في كتاب دراسات في اللهجات العربية ، كلية الآداب بسوهاج ص ص ١٨٥ ـ ٢٤٠ .***

٣ ***السويل ، عبدالعزيز (١٩٨٦م) «نحو ألفبائية صوتية عربية موحدة اقتراح لعلماء***

الصوتيات العرب» مجلـة كلية الآداب بجامعة الملك سعود المجلـد الثالث عشر، العدد الأول ص ص ٢٢٧ ــ ٢٦٥ .

السويل، عبدالعـزيز (١٩٨٦) «لهجات وسط الجزيرة العربيـة، النظرية والمنهج: دراسة حالة «مجلة المأثورات الشعبية السنة الأولى العدد الثالث . الدوحة . قطر

٤ الصويان، سعد (١٩٨٥م) «جمع المأثورات الشفهيـة» مركز التراث الشعبي لدول الخليج العربية، الدوحة، قطر .

٥ عبد التواب، رمضـان (١٩٨١م) «عن امتداد اللهجات العربية القـديمة في بعض اللهجات المعاصرة» في كتـاب دراسات اللهجات العربية، كليـة الآداب بسوهاج ص ص ١٧ ــ ٤٠ .

٦ محمد، أحمد سيد (١٩٨١م) «اللهجة العامية ودورها في الكشف عن الشخصية من خـلال الأمثـال الشعبيـة» في كتـاب دراسات في اللهجـة العـربيـة، كليـة الآداب بسوهاج ص ص ٨٤ ــ ١٠٨ .

٧ المعتـوق، شريفة (١٩٨٦م) «لهجـة العجمان في الكويـت، دراسـة لغويـة» مركـز التراث الشعبي لدول الخليج العربية، الدوحة، قطر .

المراجع الأجنبية

1 - Crane, B. et al (1981) "An Introduction to Linguistics" Little, Brown and Co. Boston.
2 - Francis, W. (1983) "Dialactology: An Introduction" Longman London.
3 - Kurath, H. (1949) "A Word Geography of the Eastern United States" Ann Arbor; University of Michigan Press.